كتب

ضمن محاولات إعادة بناء سردية جديدة للأندلس بما يتناسب وتطوُّر دراسات النوع الاجتماعي، يأتي كتاب «نساء الأندلس» للباحثة مانويلا مارين في محاولةٍ لتقديم رؤيةٍ للأندلس خارج سلطة الذكور

«الفردوس المفقود» خارج النظرة الذكورية

بحثاً عن سردية أندلسية جديدة

جعفر العلوني

ارتبط حضور المرأة في السردية التاريخية الإسلامية - العربية بخطاب الخروج من المكان المقدّس؛ سواء كان هذا الخروج من فردوس السماء، حيث كان الرجل (آدم) برفقة المرأة (حوّاء)، وسبّبت هذه الأخيرة، بشكل ما، طَرْدَه من الجنة، أم كان هذا الخروج من «فردوس» الأرض: الأندلس. لسنا بصدد الحديث عن الخروج - الطرد الأوّل. أمّا في ما يتعلّق بالخروج الثاني، فقد قام الخطاب التاريخي الذي تناول الأندلس، بشكل أساسي، على الأسطورة. وقد لا يكون من باب المصادفة أنّ علم التأريخ العربي الإسلامي قد ذكر، على وجه التحديد، أسطورتين نسائيّتين لـ «بدء» تاريخ الأندلس و«طردنا» منه. أمّا عن الفتح، فقد كان عند فلورينذا، ابنة يوليان حاكم سبتة. المرأة التي لعبت دوراً مركزياً في سقوط مملكة القوط الغربيّين في إسبانيا عام 711. تقول القصّة إنّ الملك القوطي الغربي رودريغو، شاهد فلورينذا تستحمّ في نهر تاجة (خارج طليطلة)، وبعد ذلك اغتصبها، وتركها حاملاً. ما دفع والدها إلى الانتقام، طالباً مساعدة جيوش المسلمين بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير. وفي نهاية المطاف هزيمة رودريغو وبداية التاريخ الأندلسي. لقد كانت فلورينذا- المرأة سبب سقوط مملكة القوط ووقوعها في يد العرب المسلمين!

وعلى غرار البداية، كانت النهاية أيضاً مرتبطةً بثريا الرومية. كما يُذكر اسمها في بعض المصادر العربية. وهي إيزابيلا دي سوليس. المرأة التي أُخذت أسيرة في إحدى المعارك. سُمّيت ثريا وأُلحقت وصيفةً داخل قصر الحمراء. سحرت بجمالها الآسر أبا الحسن، ملك غرناطة، فتزوّجها واصطفاها على زوجته. بعد ذلك لعبت دور البطولة في مؤامرات كبيرة لإنهاء حياة أبي عبد الله وحكمه، وكانت مسؤولة عن إنهاء مملكة غرناطة ووضع نقطة النهاية على قصّة الأندلس. هاتان الأسطورتان الأنثويتان ليستا سوى «الألفا» و«الأوميغا» في تاريخ الأندلس؛ أي سبب ونتيجة مسار اجتماعي غنيّ ومعقّد للغاية مثل المسار الأندلسي. لكنّهما، لا تجسّدان، سوى قمّة جبل الجليد الذي ظلّ جسده الأنثوي مطموساً في ثنيات مصادر العصور الوسطى العربية والإسبانية لعدة قرون، حيث حُجبت نساء متنوّعات للغاية، صنعن التاريخ أيضاً، وكنّ فاعلات في جوانب الحياة المتعدّدة: الاجتماعية، والسياسية، والدينية، والاقتصادية، والتجارية، والحربية، والفكرية، والعلمية، والثقافية والمعمارية. وبالعودة إلى المصادر والسرديات التاريخية الأندلسية، يمكن أن نلاحظ بسهولة الحقيقة التالية: سردية الأندلس ذكورية بامتياز، سواء من الجانب العربي أو الإسباني. وفي حال تضمّنت أيّة إشارة إلى النساء، فهي في غالبيتها تدور في فلك الرجال، أو في أحسن حال تقتصر على الطبقات المسيطرة والحاكمة، متجاهلةً بالكامل ثراء المجتمع الأندلسي، وتعقيداته، وتعدديّته.

ماذا عن نساء الأندلس؟ من كنَّ؟ وما دورهن؟ وكيف كنّ يفكّرن؟ وهل أسهمن حقّاً في بناء الأندلس؟ وهل يجب الحديث عن المرأة أم النساء في الأندلس؟ هي تساؤلات يطرحها اليوم في إسبانيا العديد من الباحثين والباحثات المتخصّصين في الدراسات الأندلسية. وقد يكون كتاب «نساء الأندلس»، للباحثة مانويلا مارين، الذي صدر لأوّل مرّة عام 2000 في إسبانيا، وتصدر الشهر القادم طبعة جديدة منه، الأساس الذي يستند عليه كثير من الباحثين من الجيل الجديد في محاولاتهم خلق سردية جديدة عن الأندلس تختلف جذرياً عن السردية الذكورية الراسخة. تدعو مانويلا مارين في كتابها إلى العودة إلى السرديات التاريخية الأندلسية الراسخة وإعادة قراءتها، والبحث فيها، وإعادة تفسيرها وكتابتها بما يتناسب مع تطوّر المجتمعات، وتطوّر دراسات النوع الاجتماعي، وتقدّم العلوم، وانتشار التكنولوجيا، منطلقة من مجموعة من النقاط والأفكار التي يمكن تلخيصها كما يلي: - عند البحث في المصادر التاريخية سنلاحظ وجود حركة نسائية هامّة على مدى ثمانية قرون، ولا يمكن فهم تاريخ الأندلس من دون الحضور النسائي فيها. وليست المسألة موضوعاً كميّاً. إنّه وجودٌ نوعيٌّ تَجسّد في أشكال مختلفة وأدوار تأسيسية لتلك الفترة الزمنية. - ثمّة الكثير من المعلومات في المصادر الأندلسية عن النساء الحضريات من الطبقة الثرية، أكثر بكثير عن النساء في المناطق الريفية. ولا تشير المصادر التاريخية العربية أو غير العربية إليهن، إلّا في ما ندر. - غالبية المصادر التاريخية الأندلسية كتبها الرجال. وهذا طبيعي في المجتمعات التقليدية، لكنه يكشف سبب مرور النساء على مدى ثمانية قرون كـ«نسمة خاطفة» أو كـ«سبب خاصّ».

- نَسبت الثقافةُ السائدة في العصور الوسطى إلى المرأة دوراً منزليّاً بشكل رئيسي. ولكن، يمكن الحديث عن نساء تمكّنّ من كسر هذا المشدّ الأبوي والاجتماعي، وعملن في حقول العلوم والثقافة في الأندلس. وقد مارسن أدواراً سياسية بارزة، رغم استياء الرجال ومعارضتهم الأمر. مثال على ذلك، والدة هشام الثاني وزوجة الحكم الثاني، التي كان اسمها صبح، وحكمت الأندلس إلى جانب المنصور قرابة عشرين عاماً. حصل هذا الأمر أيضاً في الممالك المسيحية الشمالية، وخير مثال على ذلك الملكة كاثرين. - تميّزت المرأة المسلمة من المرأة المسيحية في العصور الوسطى بأوروبا، حيث تمتّعت بالاستقلال الاقتصادي في المجتمعات الإسلامية. - تفوّقت المرأة الأندلسية في مجالات الشعر والفن والغناء والأدب والقانون والخطّ والسياسة والسلطة، رغم محاولات تحييدها وإخضاعها لسلطة الرجل.

تُبيّن هذه الأفكار التي تُطوّرها الباحثة الإسبانية وتضعها في سياقها التاريخي وتُحلّلها بموضوعية ضرورة إعادة دراسة التاريخ الأندلسي، وإخراجه من السردية الذكورية المُسيطِرة عليه. وهي سردية كتبها رجالٌ بقيت في مجتمعات، رغم تطوّرها حضارياً وثقافياً، رهينة التقاليد، والأعراف، والدين، والعادات، والذكورية، والأبوية. وليس من باب المصادفة أن تُربط سردية الأندلس، بدايةً ونهاية، بخطيئة المرأة، تماماً كقصّة الخلق نفسها، التي ارتبطت بخطيئة أمّنا حواء التي أنزلتنا من الفردوس إلى الأرض. إنّها المرأة مرّة أُخرى، تطرد المسلمين من «الفردوس المفقود»: الأندلس! ما يلفت الانتباه هو أنّه مقابل الرؤية العربية الثابتة للأندلس، والتي لا تنظر إليها إلّا من نافذة الماضي، ومن نافذة الأسطورة، أو في أحسن الأحوال كفردوس مفقود نقف على أطلاله كي نبكيه ونستذكره، تنشأ في إسبانيا رؤية متحوّلة عنها، تضفي عليها طابع الرمز أكثر من طابع الأسطورة. الأسطورة شيء، والرمز شيء آخر تماماً.

إنّ الامتداد الأسطوري للأندلس في المخيّلة العربية هو الذي سبّب ثبات هذه الرؤية، وهذا ما أدّى إلى غياب مثل هذه الكتب التي تعيد بناء سرديات الأندلس انطلاقاً من التغيّرات الاجتماعية والسياسية والثقافية الراهنة. في الأندلس، رمزاً أكثر منها أسطورةً، ما يتخطّى كلّ حدود، ما يتخطّى كلّ هوية وإرث، حيث تُمثّل الأندلس عملاً مفتوحاً يتجدّد مع كلّ قراءة، في ما وراء الأيديولوجيات والسياسة، في ما وراء السرديات الوطنية أو الحماسية. وهذا العمل خُلق جمعاً لا فرداً. من هنا، لا بدّ من إعادة النظر عربياً إلى الأندلس بعيداً عن السرديات الوطنية، أو سرديات الأسطورة، أو سرديات الذكور. ربّما في هذا يكمن سبب العجز عن خلق أنموذج للحضارة الأندلسية في البلاد العربية؛ لأنّنا لم نستطع أن نُخرجها من الرؤية التقليدية للماضي.

في التاريخ كما في الحياة، لا يتوقّف الأمر على تصميم إرادتنا فحسب، وإنّما يجب قبول مجريات الحقب التاريخية ومقتضياتها. إذا كانت الحقبة الأندلسية ذكورية، وكُتبت بريشة الرجال، فلماذا لا نحاول اليوم أن نقرأها من منظور نسوي؟

بطاقة

Manuela Marín أكاديمية وكاتبة إسبانية من مواليد مدريد 1948. عملت باحثةً في «المعهد العربي - الإسباني» في بغداد بين عامَيْ 1969 و1976، وكذلك باحثة في «معهد الثقافة الإسبانية - العربية» في مدريد. ركّزت على دور النساء في الأندلس، ومن بين مؤلّفاتها: «الأندلس والأندلسيون» (2002) «حيوات نساء أندلسيات» (2006)؛ و«شهادات استعمارية: الإسبان في المغرب» (2015).

ظلّت سردية الأندلس ذكورية في جانبيها العربي أو الإسباني

وجود نسائي نوعيّ تجسّد في أشكال مختلفة وأدوار تأسيسية

سيدة تتأمّل «قصر الحمراء» من حي البيّازين في غرناطة (Getty)

نظرة أولى

عن «مؤسّسة الدراسات الفلسطينية»، صدر كتاب **التمويه الإنساني: إسرائيل تعيد كتابة قوانين الحرب لإضفاء الشرعية على الإبادة الجماعية في غزّة** للباحثين لويجي دانيلي ونيكولا بيروجيني وفرانشيسكا ألبانيز. يدرس العمل كيفية استخدام الاحتلال الإسرائيلي للقانون الإنساني الدولي من أجل تبرير أعماله في غزّة التي ترقى إلى مستوى الإبادة الجماعية، موضّحاً أنّ الأجندة الاستعمارية الاستيطانية الإسرائيلية تحرم الفلسطينيّين من حقوقهم بشكل منهجي، وتُحوّل غزّة إلى مكان للعنف والفصل والإبادة الجماعية، عبر القصف وتدمير البنية التحتية المدنية.

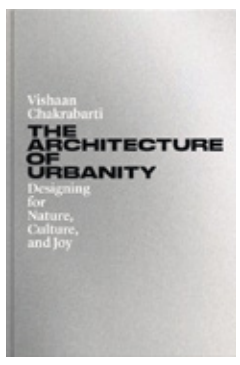

عمارة التمدّن: التصميم من أجل الطبيعة والثقافة والفرح عنوان كتاب صدر عن «منشورات جامعة برنستون» لأستاذ العمارة الأميركي الهندي فيشان تشاكرابارتي. يدرس المؤلّف علاقة الهندسة المعمارية بأكبر المعضلات الاجتماعية والتكنولوجية والبيئية في التاريخ، ويقدّم نماذج من أعمال لعدد من المعماريّين من أجل توضيح كيف يُحسّن التصميم المبتكر الحياة بشكل كبير في المدن الكبرى، سواء على صعيد الاستدامة أو العدالة الاجتماعية والمساواة في توزيع الفرص، مرفِقاً الكتاب بالمخطّطات الأصلية والبيانات والإحصاءات والصور الفوتوغرافية والرسومات.

ما معنى الحرية في حالة تاريخية خاصّة وليس مجرّد خطاب طوباوي أو وعظي؟ وكيف تمارَس في سياق قسري من الاستبداد والحرب؟ وكيف يتشكّل الوعي الطلّابي عن القضايا الإنسانية الكبرى؟ وما معنى النضال والمقاومة؟ انطلاقاً من هذه الأسئلة يُقدّم الباحث وأستاذ الفلسفة الجزائري محمد شوقي الزين كتابه **عاشت الحرية! فلسفة الوردة البيضاء**، الصادر عن دارَي «ابن النديم» و«الروافد الثقافية - ناشرون». يحكي الكتاب قصّة مجموعة من طلّاب «جامعة ميونيخ» وأساتذتهم التي لقّبت نفسها بـ«الوردة البيضاء» لتُجابه الطغيان في ظروف الحرب.

كيف أصبح بيير بورديو (1930 - 2002) أحد أشهر الباحثين في علم الاجتماع؟ وكيف يمكننا أن نفسّر مسار ابن مدير مكتب البريد من جبال البرينيه الذي أصبح أستاذاً في «كوليج دو فرانس» وأحد روّاد الحركة الفكرية في فرنسا؟ في كتابه **بيير بورديو.. نشأة عالم اجتماع** الصادر عن «منشورات CNRS»، يُحاول فيكتور كولارد أن يُجيب عن هذه الأسئلة بالاعتماد على مقابلات وكتابات أرشيفية تُنشر لأوّل مرّة، من خلال إعادة صياغة حالة الفلسفة وعلم الاجتماع منتصف القرن العشرين، والغوص في المجتمع الفرنسي بين الحرب العالمية الثانية والثورة الجزائرية.

صدر كتاب **شهادات على جدران حبيبتي غزّة** للكاتب الفلسطيني يسري الغول عن «دار فضاءات» بتقديم الشاعر والناقد السوري كمال أبو ديب. يوثّق الكتاب حرب الإبادة الجماعية التي يشنّها الاحتلال الإسرائيلي على غزّة منذ أكثر من عام، من خلال شهادات ونصوص، كُتبت بأسلوب يمزج بين اللغتين الأدبية والتقريرية الصحافية، حول أحداث وقعت في شمال القطاع ومناطق أُخرى منه، وشخصيات حقيقية منها رنا الحصري التي فقدت زوجها وأبناءها، وريم المغربي التي اختطف الإسرائيليون زوجها وأبناءها ولم يعودوا حتى اليوم.

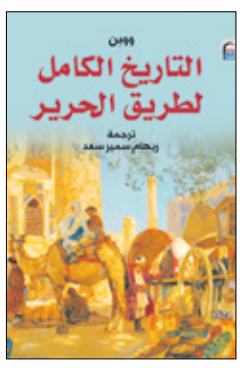

عن «المركز القومي للترجمة»، صدرت الطبعة العربية من كتاب **التاريخ الكامل لطريق الحرير** للباحث الصيني ووبن، بترجمة ريهام سمير سعد. يتناول العمل «طريق الحرير» منذ العصر الحجري وحتى العصر الحالي، ويضيء جوانب تاريخية وثقافية تتعلّق به؛ مثل السلع والغزوات والمعارك ونشر الأديان وسفر الرهبان ومبادرات السلام، مستشهداً بنصوص من سجلّات قديمة ووثائق ومراسيم وكتب وأقوال لسياسيّين وأدباء وعلماء من مختلف دول العالم. من مؤلّفات ووبن الأُخرى: «تاريخ التواصل الخارجي للثقافة الصينية» و«قوّة الحضارة: تأثير الحضارة الصينية على العالم».

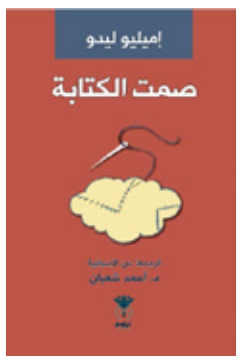

كيف تُصبح اللغة عبر الكتابة كياناً قائماً وموجوداً بذاته؟ وكيف تصبح عبر القارئ حواراً وجدلاً وسلوكاً مقروناً بالواقع عبر الأفعال؟ سؤالان يجيب عنهما كتاب **صمت الكتابة** لمؤلّفه الإسباني إميليو ليدو، والصادر عن «دار نينوى» بترجمة أحمد شعبان، عبر تقديم نموذج عن العلاقة بين الماضي والحاضر، وعن الفراغ الكائن بين زمانيتهما، وكيف تتمكّن الكتابة من إيجاد مقاربات عجيبة عبر عملية الخلْق التي يُبدعها المؤلّف في زمن الكتابة، وعملية الخلْق الأُخرى التي يُعيد القارئ فيها بعْثَ الزمن الماضي في زمن حاضره الذي هو زمن قراءته للنص.

بترجمة أسعد المعلوف، صدر عن «دار الساقي» كتابٌ بعنوان **غسيل الأدمغة: تاريخ التحكّم في العقول** للباحث والأكاديمي البريطاني دانيال بيك. يضيء العمل عالَم غسل الأدمغة، ويشرّح حالات بارزة شهدها التاريخ منذ مرحلة الحرب الباردة حتى اليوم؛ سواء عن طريق الحكومات أو التعليم أو الطب أو شركات التكنولوجيا الحديثة، أو في أشكال أُخرى من الإقناع الخفيّ لا يمكن الصمود أمامها. دانيال بيك محلّل نفسي ومؤرّخ وأستاذ في «جامعة لندن»، صدرت له مؤلّفات عدّة حول التاريخ الثقافي الحديث وتاريخ العلوم الإنسانية.